علي بن هذيل الأندلسي وكتابه :
(تحفة الأنفس ونوادر سكان الأندلس)

لدكتور خليل أبو رحمه

اذا كانت الاندلس المسلمة قد بلغت من القوة أيام الدولة الاموية بحيث هابها الاعداء . فانها انحدرت — فيما بعد — الى حالة سياسية سيئة، حيث تقاسمها ملوك الطوائف ، ولم يرعو بعضهم عن طلب العون من ملوك النصارى ضد أبناء دينه ؛ فأخذت قواعد الاندلس تتساقط تباعا في أيدي النصارى ، رغم ما بذله المرابطون، ومن بعدهم الموحدون من جهود في المحافظة على ما تبقى من قواعد بأيدي المسلمين .

وفي ثنايا الفتن والمنازعات والدسائس ، تقوم مملكة غرناطة (٦٣٥ هـ)، بزعامة محمد بن يوسف النصري الخزرجي المعروف بابن الاحمر . وتتحمل هذه الدولة الصغيرة مسؤولية الجهاد منذ نشأتها . وتستطيع أن تصمد في وجه حرب الاسترداد التي اتخذت طابعا قوميا ودينيا . ويشاء الله لهذه المملكة الصغيرة أن تعمر ما يقرب من قرنين ونصف قبل أن تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وتستسلم الى أولئك الذين تمت على أيديهم مأساة من أفظع مآسي التاريخ .

ولا يخفى على الدارس أن مملكة غرناطة قد بلغت قمة مجدها السياسي والعلمي أيام السلطان أبي الحجاج يوسف الاول (٧٣٣ —

٧٥٥ هـ) ، وابنه السلطان محمد الخامس . المعروف بالغني بالله ، الذي توفي سنة ٧٩٣ هـ . فكان الملكان — فوق فروسيتهما — عالمين يشجعان العلم ويرعيانه : ففي زمن أبي الحجاج شيدت « المدرسة اليوسفية » المشهورة . كما تم بناء المارستان الاعظم في غرناطة زمن الغني بالله . ونبغ في هذه الفترة طائفة من أهل العلم والادب ، وعلى رأسهم ابن الخطيب ، وابن الجياب ، وابن زمرك ... وبين أولئك عاش صاحبنا ابن هذيل ، وأسهم بتآليفه في هذه الحركة العلمية الناشطة . وكان أديبا ملتزما بقضية أمته المهمة ، كما يظهر ذلك من كتابه « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » ، وهو يقع في جزأين : الاول في الجهاد عامة ، والثاني في الخيل والسلاح . فالرجل قد استجاب لظروف العصر ، وأصاخ لدواعي النصر ؛ وبذلك كان أديبا واقعيا عمليا لا خياليا ، حيث اتخذ من الادب دعوة للجهاد في سبيل الله . وهو قد أنس بفيء القرآن الكريم ، وبسنّة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وبالتاريخ الاسلامي والعربي في تأليف كتابه المذكور . وهذا الكتاب من الكتب التي تفصح عن الروح الاسلامية وهمومها آنذاك أكثر مما تفصح كتب التاريخ . فالرجل قد اكتوى بنار التجربة ، فعبّر باحساسه الخاص عن احساس عام ، ولا سيما في الجزء الاول من كتابه .

وابن هذيل هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الاندلسي الغرناطي (١) ؛ ينتسب الى قبيلة فزارة . كما يفهم من قوله : « وقال بشر بن هذيل وهو أحد قومنا (٢) ... » . ذكر محقق « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ما نصه : « وعلى كثرة التراجم التي أوردها صاحبا نفح الطيب والاحاطة ، لم تقع العين على اسم هذا المؤلف الذي يشترك في بعض الاسم مع الحكيم الاندلسي أبي زكريا يحيى بن

هذيل ، الذي كان من اشهر علماء الاندلس في القرن الثامن من الهجرة . وقد تعاصر مؤلفنا ويحيى بن هذيل ، وعاشا في مدينة غرناطة ، عاصمة دولة بني نصر أو بني الاحمر (٣) . ويقول لويس مرسييه : « أما ابن هذيل فلم اقف على ترجمته في كتب التراجم والمعاجم (٤) . ويبدو لي أن قول مرسييه أكثر حيطة من القول السابق لمحقق الحلية . وقد بحثت ما وسعني البحث فلم اقف على ترجمته في الكتب التي رجعت اليها ، ولكنني وقعت على ما أعتقد انه اشارة اليه . فقد جاء في « النفح » (٥) ما يلي : « وكتب ابن هذيل الفزاري للغني بالله ، سلطان لسان الدين بن الخطيب :

ليس يا مولاي لي من جابر اذ غدا قلبي من البلوى جذاذا

غير صك أحمر تكتب لي فيه يمناك اعتناء : صحّ هذا

والارجح عندي أن هذه الاشارة هي اشارة الى مؤلفنا ، ولي في ذلك أدلة أستند اليها : فأبو زكريا يحيى بن هذيل توفي سنة ٧٥٣ هـ . أي قبل أن يصبح الغني بالله سلطانا بسنتين . وقد بحثت عمن يكنى بابن هذيل في هذه الفترة فلم أجد واحدا يمكن أن ينسب البيتان اليه . وصاحبنا كان يُعرَف بالفزاري ، فهو ينتسب الى « فزارة » كما يؤخذ من كتابه « عين الادب والسياسة » (٦) . كما بحثت عن ابن هذيل الفزاري في الكتب القديمة فلم أجد له ذكرا . وفوق ذلك فابن هذيل قد رفع الجزء الاول من كتابه « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » الى السلطان الغني بالله ، كما سيجيء . وهذه الاشارة ، ان صحت ، هي ذات دلالة على أن الرجل كان مقربا من الغني بالله ، فهو يكاتبه . كما تدل على أن الرجل كان ينظم الشعر ، وان لم يكن شاعرا . وانا لم أجد له شعرا في كتابه « التحفة » .

يذكر مرسييه انه بحث عمن يحتمل أن يكون جدا من أجداد علي بن هذيل ، فلم يجد من يحتمل أن يكون ذلك الا شيخا زاهدا اسمه ابو الحسن بن هذيل ؛ فانه لم يزل بقيد الحياة في أواخر القرن السادس الهجري ؛ وهو بلنسي الاصل ، كان صاحب الصلاة والخطبة بمسجد لُوْرقة ، وأجاز لعدة من مشاهير علماء ذلك القرن ، منهم القاضي عياض (٧) . ويذكر مرسييه أن أبا البقاء خالد بن عيسى بن أحمد البلعي قد ذكر في رحلته « تاج المفرق في تحلية علماء المشرق » الشيخ أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن هذيل البلنسي . ويخلص مرسييه الى القول : « فيحتمل أن حفدة الشيخ ابن هذيل هذا كانوا من جملة المسلمين الذين أخرجهم ملك الاسبان، دون خايمه، من بلنسيا سنة ٧٥٠ هـ ، والتجأوا غالبا الى ايالة غرناطة ، حتى ازداد منهم مؤلف التحفة » (٨) . وقد بحثت عن الشيخ أبي الحسن المذكور فوجدت ابن الأبّار يذكره في كتابه « المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي » (٩) ، ووجدت انه توفي سنة ٥٦٤ هـ ، ولم يعمر حتى نهاية القرن السادس الهجري ، كما ذكر مرسييه . ولا يعقل أن يكون علي بن هذيل قد ازداد من حفدة الشيخ المذكور سنة ٧٥٠ هـ أو بعدها ، لانه رفع الجزء الاول من « التحفة » سنة ٧٦٣ هـ الى الغني بالله ؛ فالاصح انه ولد قبل سنة ٧٥٠ هـ. وهكذا فاحتمال مرسييه ضعيف، ولا سيما أن الرجلين يلتقيان في الاسم « محمد »، وهو والد الشيخ، والجد الثاني لعلي بن هذيل ؛ ولكن المدة الزمنية بين أبي الحسن علي بن محمد ، وعلي بن عبد الرحمن ، تقرب من مئتين وخمسين عاما . والارجح عندي أن بين الاثنين عمومة بعيدة، أو خؤولة بعيدة .

شيخ من شيوخ علي بن هذيل :

اما شيوخ ابن هذيل ، فلم أعرف منهم الا واحدا ، ذكره ابن هذيل في الجزء الثاني من كتاب التحفة (١٠) ؛ فقد جاء في الكتاب المذكور ما نصه : « ومن أبدع ما قيل فيه — يعني الرمح — قول شيخنا القاضي الشريف أبي القاسم الحسني ، رحمه الله : .

واصمّ ممطول الكعوب اذا اقتضى مهج الكماة فدينه لا يمطلُ

متوقد حتى اقول : اذابل بِيَدَيَّ منه ام ذبالٍ مشعلُ

لولا التهاب النصل أيفع عوده مما يُعَلُّ من الدماء وينهلُ

فاعجب له ان النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتلُ (١١)

وابو القاسم الحسني « هو محمد بن أحمد الحسني السبتي القاضي، الملقب بالشريف ؛ آية الله في العربية ؛ شرح الخزرجية ، لم يسبقه احد الى ذلك . قال ابن الخطيب القسنطيني في وفياته : له شعر مدوّن سماه « جهد المُقِلّ » . كان إماما في الحديث والفقه والنحو ؛ وهو ممن يحصل الفخر بلقائه » (١٢) . وقال لسان الدين بن الخطيب عن أبي العباس بن الشريف أبي القاسم : « بارق ينتمي الى راعدة ، وبناء على قاعدة . فأبوه الطود الاشم ... » (١٣) ومن تلاميذ أبي القاسم الامام ابو اسحق الشاطبي ، وعبد الله بن زمرك ، ولسان الدين بن الخطيب ؛ وبمثل هؤلاء تفتخر غرناطة . وبينهم ظهر صاحبنا علي بن هذيل . فهو قد عاش في جو حافل بالعلم والادب ، وهو قد ساهم في هذه الحركة العلمية النشطة حيث ألف عدة كتب . ولا يعقل أن ينسي ابن هذيل،وانما أقول : ان الكشف عن الكتب التي ترجمت لتلك الفترة قد يزيل السدف عن حياة الرجل ؛ فكتاب الاحاطة لم يصل الينا كاملا ، ووفيات ابن الخطيب ما زال مخطوطا ، وغيرهما كثير .

آثـــار ابـــن هذيـــل :

الـــف علي بن هذيل عدة كتب ؛ وقد وجدت مخطوطات منهـــا ، كما طبع بعضها . ومن مطالعة كتبـــه التي عثر عليها نعرف أن من تآليفه :

١ ــ كمـــال البغية والنيـــل .

٢ ــ تذكرة من اتقـــى .

٣ ــ مقالات الادبـــاء ومناظرات النجباء .

٤ ــ الفوائـــد المسطرة في علـــم البيطرة .

٥ ــ عين الادب والسياسة وزيـــن الحسب والرياسة .

٦ ــ تحفـــة الانفس وشعار سكان الاندلس . ويقع في جزايـــن : الاول في الجهاد ، والثاني في الخيـــل والسلاح ؛ وهو الجزء الذي أطلق عليه فيما بعـــد : « حلية الفرسان وشعار الشجعان » .

أمـــا كتاب « كمال البغية والنيل » فقد ذكـــر المؤلف اسمه فـــي كتابه « عين الادب والسياسة » (١٤) ، وذلك قولـــه « ومن المنقول فـــي تأليفنا كمال البغية والنيل » . ولـــم أعثر على خبر يفيد ان أحـــدا عثـــر على مخطوط منـــه . وكذلك شأن كتابه « تذكرة من اتقى » ، فقـــد اشار المؤلف اليه في كتـــاب « عين الادب والسياسة » (١٥) كقوله : « ومـــن المنقول في تأليفنـــا تذكرة من اتقى ... » . وكتابه « مقالات الادبـــاء » ذكره غير مرة في كتابـــه « عين الادب والسياسة » (١٦) كقولـــه : « ومن المنقول في تأليفنا مقالات الادباء » . أمـــا كتاب « الفوائد المسطرة في علـــم البيطرة » فقد عثر عليه م. كولان في مكتبة الآثـــار التاريخية بمدريد (١٧) ، وطبع هذا الكتاب في مدريـــد سنة ١٩٣٥ (١٨) .

امـــا « عين الادب والسياسة » فمنه نسخة لدى السيد العربـــي القصيري ، رئيس مجلس الجنايات بدار المخزن ، واخرى مخطوطـــة بمكتبة الرباط العمومية ، وثالثة بمكتبة الاسكوريال (١٩) . وقد طبـــع هـــذا الكتاب لاول مرة في مصر سنـــة ١٣٠٣هـ ، ١٨٨٥م بمطبعـــة الاعتماد (٢٠) . ويذكر محمد عبد الغني حسن انـــه « لا يدري على اية مخطوطة اعتمدت هـــذه الطبعة الاولى للكتاب » (٢١) ولكـــن مرسييه يذكر انهـــا اعتمدت على « نسخة السيد العربـــي القصيري » (٢٢) . وطبع الكتاب مـــرة ثانية على هامش كتاب « غرر الخصائص الواضحة » للأديب المصري جمال الدين « الوطواط » ، وهذه الطبعة في المطبعـــة الادبيـــة المصرية سنـــة ١٣١٨هـ ، ١٩٠٠م. واخـــر طبعة لهذا الكتاب هي التي ظهرت في سنـــة ١٩٣٨م بمطبعة مصطفى البابي الحلبـــي . « وهذه الطبعات في مجموعها مملوءة بالاخطاء والتحريف والتصحيـــف ، وينقصها كثير من التحقيق والنشر العلمي الصحيح (٢٣) . ويبدأ هـــذا الكتاب بـــ « الحمد لله الذي وهب لنـــا العقول والاذهان ... » . ورتبه ابـــن هذيل على اربعة اقسام :

١ ــ في نبـــذ من الاحاديث والحكم والامثال ، التي يقوى الشاهد بهـــا ويُعْظُـــم الاستدلال .

٢ ــ في السؤدد والمروءة ومكـــارم الاخلاق ، ومداراة الناس والتأدب معهم في حالتي الغنى والامـــلاق .

٣ ــ في طُـــرف من الحكايات والآداب الصادرة عن اولـــي الالبـــاب والاحســـاب .

٤ ــ في جمـــل من الوصايا والمواعظ الحسان ، العظيمة الفائدة والمنفعة لكـــل انســـان .

أمـــا عن كتاب « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس » فهو يقـــع في جزأين . وقـــد وقعت بين يدي صورة عن مخطوط الجـــزء الاول ، أمـــا الجزء الثاني فقد طبـــع .

وعـــن مخطوطات الكتاب ذكر لويس مرسييه أن السيد نهليـــل، المحامي في الدار البيضاء،قد وقـــع على مخطوطة منه وقدمها اليـــه (٢٤) . وقد لجأ مرسييه الى تصوير الجـــزء الثاني سنة ١٩٢٢ ، وتصويـــر الجزء الاول سنة ١٩٣٢.وذكر انـــه لم يستطع مقابلة الجـــزء الاول بنسخة الاسكوريال . ثم دلّـــه م. كولان على مخطوطتين اشترتهمـــا المكتبة العمومية بحاضرة ربـــاط ،احداهما متن تحفـــة الانفس بعينه ورقمها « D — ٩٠٤ — » ، وهـــذه النسخة تنقصها الورقة الثانية ؛ وورقة من الفصل الاخـــير للجزء الثاني . كما لحق بهـــا تشويه كبـــير يعزى للعـــث والحشرات،ولا سيما بيـــن ٥ — ٧ أسطر في أعلـــى السبع عشرة ورقـــة الاولى . أما المخطوطة الثانية فقد ذكر ناسخها انـــه كتبها من نسخة مختصرة من كتاب ابـــن هذيل . ورقم هذه المخطوطـــة D — ١١٠٨ — . « واتضح مـــن مطالعتهـــا ان المختصر لها اقتصر على قطع أواخـــر الابواب الاربعين،من غير مراعاة لاتمام المعنى مـــع الايجاز،كما هـــو الواجب في مثل ذلك . وقد تـــم نسخها صباح الاثنين ١٥ ربيع الثاني سنـــة ٩٦٤ هـ في آسفي بني مجير . ثـــم ان السيـــد عبد الله الكتاني اعطـــى مرسييه نسخة أخرى كاملـــة كانت في مكتبة جامعة القيروان ، وبفضل هـــذه المخطوطة استطاع ان يصحح جـــزءا كبيرا من أخطـــاء النسخة الكاملة لنهليل (٢٥) » . وذكـــر بروكلمـــان مخطوطة احمـــد تيمور،ورقمها ٩٩ فروسيه . وذكر مرسييه انـــه حصل من المسيو « م. س. بيارني »،مديـــر مصلحة التلغراف الشريفية بالمغرب، على مخطوطة بعنوان « حليـــة الفرسان وشعار الشجعان »،ولم يذكـــر

عليها اسم مؤلفهـا . وهكذا نكون قد عرفنا ست مخطوطات من الكتاب : اربعـا منها من الكتاب بجزايه ، وواحدة مختصرة . والاخـيرة هـي مخطوطة الجـزء الثاني من الكتاب .

وصف مخطوطة الجـزء الاول المصورة :

لا يذكـر مرسييه متى كتبت المخطوطة ، كما لا يذكر اسم ناسخها ، وهو يذكر انـه لجأ الى تصوير المخطوط الذي قدمه اليـه نهليل . وقد تـم التصوير سنة ١٩٣٢م. واكتفى مرسييه بالتصوير ووضع جـدولا صحح فيـه بعض الكلمات ، وذكر انـه سيحتفظ بنشر ملاحظاتـه واشاراته في ترجمته لـه (٢٦) .

كتبـت المخطوطة بالخط المغربي في سبع وثمانين صفحة مـن القطـع المتوسط . وفي كل صفحة خمسة وعشرون سطرا،ومتوسط مـا في السطر اربـع عشرة كلمة . وليس في النسخة بياض ، ولا يوجـد فيها غموض،الا ما وقـع في الصفحة الثانية بين السطرين الثاني والخامس، حيـث تختفي بعض الكلمـات . وقد صحّحها مرسييه بالنظـر الـى مـا يقابلها في الجـزء الثاني،حيث تتّفـق المقدمتـان في كثير من الكلمات والجمل ، أو انـه رجع الى نسخة أخرى . وقـد وقـع ناسخ المخطوطة في كثير من الاخطـاء ؛ وعندما حاول مرسييـه تصحيحها وقـع في أخطاء كثيرة ، بل انـه كثيرا ما خطّأ الصـواب : « فكلمـة » استحلت في قول المؤلـف « استحلت الغنائم » (٢٧) يجعلهـا مرسييه « استحيلت »،وكلمة « مخيفي » في قول المؤلـف « مخيفـي سبيل (٢٨) يجعلها مرسييه « مخيعي » . والمؤلف يكتب كلمة « سراة » هكذا « سرات »،ويبـدو ان كتابة التاء المربوطة مفتوحة كانت شائعة . ولكـن مرسييه بدلا من تصحيحها يستبدل بهـا كلمة « سادة » دون أن ينتبـه

الى أن الكلمة وردت في الشطر الاول من بيت للفرزدق وهو « كذا دابي وداب سراة قومي » (٢٩) . وواضح أن استبدال كلمة « سادة » بكلمة « سراة » يخرج البيت عن موسيقاه . وغير ذلك كثير من الاخطاء التي وقع فيها مرسييه .

كما أن مرسييه اغفل كثيرا من الكلمات دون تصحيح ؛ فقد ورد في الكتاب ما يلي : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيقطع الجهاد والرباط الا بجيزة يقال لها الاندلس ... » وواضح أن كلمة « جيزة » خطأ . والصواب « جزيرة »، بدليل ما ورد من أحاديث أخرى في الكتاب منسوبة للرسول، صلى الله عليه وسلم، ولكنها تذكر كلمة «جزيرة » . كما أن كلمة « جيزة » لا تؤدي المعنى المطلوب في الحديث السابق ... وينقل المؤلف أبياتا لحسّان بن ثابت في مدح الانصار ، وهي من البحر البسيط، ومنها هذا البيت كما اثبته الناسخ :

وما هز جنات الحرب نادينا ونحن حين تلظى نارها سعر (٣١)

وواضح ما في الشطر الاول من اضطراب في موسيقاه وفي معناه . والصحيح هو :

ولا يهزّ جناب الحرب مجلسنا ونحن حين تلظى نارها سعرُ (٣٢)

ويبدو أن مرسييه لا يعرف جيدا أساليب العرب في القول ، ولذا وقع في بعض الاخطاء حين حاول أن يصحح . فالمؤلف في تفسيره كلمة « أولي الامر » في قوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » يقول : « فقيل في أولي الامر انهم الولاة الامر . قاله أبو هريرة وابن عباس وغيرهما . وقيل هم أصحاب السرايا ، وقال جابر بن عبد الله هم أهل العلم والفقه ؛ والاكثر على أنهم

الامراء والسلاطين » (٣٣) . وواضح أن كلمة « والاكثر على انهم » تفيد معنى الاتفاق ؛ ولا داعي لذكر كلمة « واتفق »،كما فعل مرسييه حيث راى اضافة كلمة « واتفق » قبل كلمة « الاكثر » . ورغم اخطاء مرسييه الا انه يبقى له الفضل في تعريفنا الى هذه المخطوطة . وهو قد حاول فأصاب في شيء واخطأ في آخر ، ويبقى له فضل السبق، وتبقى له محاولة الاجتهاد؛والعصمة لله وحده . وهكذا فالنسخة المصورة عن مخطوطة نهليل لا تحقق الفائدة الكاملة المرجوّة ،ان اعتُمِد عليها . والواقع انها تنتظر يدا مخلصة لوجه الله تعالى تنقذها مما بها من تحريف وتصحيف واخطاء .

وصف مخطوطة الجزء الثاني المصورة (٣٤) :

تم نسخ هذه المخطوطة التي نشرها مرسييه بطريقة الفوتوتيب في سنة ١١١٠هـ ، على يد أحمد بن أحمد بن جلون . وهي مكتوبة بالخط المغربي الدقيق،في ثمانين صفحة من القطع المتوسط . وفي الصفحة خمسة وعشرون سطرا ، ومتوسط ما في السطر أربع عشرة كلمة؛وليس في النسخة بياض الا في الصفحتين الاخيرتين . وقد أضاف مرسييه اليها ست عشرة صفحة من التصويبات التي وجدها في نسخة الاسكوريال . وصَوَّر مرسييه نسخته هذه عن النسخة التي عثر عليها المسيو م. س. بيارني،مدير مصلحة التلغراف الشريفية بالغرب .

ويظهر أن ناسخها ــ غفر الله له ــ كان خالي المعرفة بالادب والتاريخ واللغة والشعر وأسماء الرجال ... فقد وضع فيها من التحريف والتصحيف والمسح والتشويه ما كثر معه العناء في التصحيح . ويستطيع القارىء ان يدرك ذلك بأدنى نظر الى الهوامش الكثيرة التي ازدحمت بها طبعة الكتاب ، التي تُعَدّ أول طبعة عربية له .

وعلى الرغم من جداول التصويب التي أضافها الناشر المستشرق الفرنسي الى النسخة المصورة،لم يكد يَسْلَم سطر واحد من الخطأ والتحريف ؛ بل كثيرا ما كان يعمد الى الكلمة الصحيحة فيتوهم انه يصحّحها ... ولكن بخطأ جديد؛وكثيرا ما كان يمر على الكلمة المحرّفة فيتركها دون اصلاح،تَوَهُّمًا منه لصحتها .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا ؛ فلم تعجبه كلمة « الدغم » في غرر الخيل،وهي صحيحة بالكتاب ، فأصلحها في جداول الخطأ والصواب الى « الرغم » بالراء ... وترك كلمة « العلق » في وصف ابي العلاء المعرى للرمح دون تصويب،وصوابها « الحلق » .

والحقيقة ان من ينظر الى هوامش كتاب « الحلية » يدرك مدى ما لقي محمد عبد الغني حسن في تحقيقه . ولكن يبدو لي أن المحقق ــ غفر الله له ــ لم يَرَ غير النسخة المصورة،وهو على علم بوجود نسخ أخرى من المخطوطة . ودليلي على ذلك أنه لا يشير في مقدمته الى اعتماده على نسخة أخرى ؛ ولذلك تكلف هذا العناء واضطر الى أن يبحث عن كثير من جمل الكتاب في الكتب الاخرى . كما أنه يكثر من استعمال كلمة « هكذا بالاصل »،ولا يقصد بالاصل الا النسخة المصورة . كما يكثر من استعمال كلمة « هكذا بالاصل والتصويب عن ... » وهو يرجع في تصويبه الى الكتب،لا الى مخطوطات أخرى . وقليلا ما يذكر نسخة الاسكوريال،ولكن ذكره لا يعني رؤيته لها،لانه يرجع رؤيتها الى ناشر المصورة .

كما يبدو لي أن المحقق ــ سامحه الله ــ لم ير الجزء الاول من الكتاب رغم أنه نص على وجوده مخطوطا ، فهو يقول : « ووعد مرسييه بنشر القسم الاول من كتاب التحفة لابن هذيل ، وكان ذلك في

سنة ١٩٢٢ ، حتى يتـم بذلك كتاب الاديب الاندلسي كلّـه . ولا نعلم ان كانت الايـام امكنته من انجاز وعـده ».(٣٥) ومعروف أن مرسييه نشر صورة مخطوطة الجـزء الاول سنة ١٩٣٢م . والمحقق طبع الجزء الثاني سنة ١٩٤٩م . ولـو راى المحقق الجزء الاول ما اعتمد علـى التخمين في تحقيق مقدمـة الجزء الثاني ، اذ أن المقدمتين متشابهتـان الى حـد كبير . فقد جاء في الاصل المصور ما يلـي : « والباب الثالث في حفظ الخيل وصونها ، وما ــ بل والوصية بهـا » (٣٦) وقد صحح المحقق هذا النص فجـاء « والباب الثالث في حفظ الخيل وصونهـا ، وما قيل في الوصية بهـا » وعلق على ذلك بقولـه : « ولعل الصواب ما ذكرناه » . ولـو راى المحقق الجزء الاول المخطوط أو المصور لاستغنى عـن التخمين،ولثبت عنده أن « وما ــ بل » من زلـة قلـم الناسخ ؛ فقد ورد في الجزء الاول ما يلـي : « الباب الثالث في حفـظ الخيـل وصونها والوصية بهـا » . وواضح أن المحقق استغنى عن كلمـة « بـل » الزائدة ولكنه أوجـد كلمة تناسب كلمة « ومـا » الزائدة ؛ ولا داعي للكلمة « ومـا » ولا لكلمة المحقق « قيل في »،المضافة الى النص،لان المعنى يستقيم كما في الجزء الاول . وفوق ذلك ، وقـع المحقق في لبس حين تحدث عن الملـك الذي رفع اليه الكتاب،مما يؤكد انه لم يـر الجزء الاول . وسأتحدث عن السلطان الذي رفـع اليه الجزء الاول بعـد أن أتحدث عـن اسم الكتاب .

اسـم الكتـاب :

يقـول ابن هذيل في مقدمة الجزء الاول،بعـد أن يتحدث عن طريقته في تأليفـه : « وسَمَّيتُه تحفة الانفس وشعار سكـان الاندلس،وقسمته على قسمين جامعين لفوائـد غريبة ، ومعان صحيحة غير سقيمة ولا معيبة،يشتملان على اربعين بابـا : فالقسم الاول في الجهاد والربـاط

وما يتعلق بـــه،ويحتوي على عشرين باباً؛والقسم الثاني في الخيـــل والسلاح وما يتعلق بهمـــا،ويحتوي ايضا على عشرين بابـــا » (٣٨) . وواضح ان اسم الكتاب هـــو « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس »، وهو في جزاين ، في كل جـــزء منهما عشرون بابـــا .

ولـــدى الموازنة بين اسماء ابواب الجزء الثاني،كمـــا وردت في المخطوطة التي عثر عليها بيارني،وبين اسمـــاء الابواب الاربعين التـــي وردت اسماؤها في مقدمة الجـــزء الاول المخطوط،الذي حصلت علـــى صوره منه،تبيّن لـــي ان لا خلاف بين اسماء الابواب في كلتـــا النسختين، إنْ في النص او في الترتيب . كمـــا وجدت أن المقدمتين متشابهتان،ولـــم تختلفا الا اختلافا يسيرا اقتضاه اختـــلاف السلطانين اللذين رفع لهمـــا الجزآن ، كما اقتضته مـــادة كل منهما ؛ وما عدا ذلك فالنصان متشابهان، إن في الغرض،او في وصف المنهـــج،او وصف بعض السلاطين . ولكـــن ، من اين أتى اسم الجـــزء الثاني : « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ؟ وهل وضع ابـــن هذيل هذا العنوان ؟ .

لا يوجـــد هذا العنوان الا في مخطوطة وجدها مرسييه عنـــد المسيو « م. س. بيارني » (٣٩) . أمـــا المخطوطات الاخرى فـــلا تذكـــر هذا العنوان . وابـــن هذيل نفسه لم يذكره في مقدمة الجـــزء الاول،كما بيّنت . وذكـــر مرسييه أن نسخ المخطوطة تلك هو احمـــد بن احمد بن جلون ، سنة ١١١٠هـ . واستدل على هـــذا الاسم مما جاء بآخر المخطوطة، وهو ما يلـــي : « انتهى بحمد الله وتوفيقه على يـــد كاتبه أحمد بـــن جلّون ، غفر اللـــه ذنبه وتاب عليه ، آميـــن . صحوة يـــوم الجمعة الثانية من المحـــرم من العام العاشر بعد مائة والف » (٤٠) . وقد بحثـــت عن ابن جلون فلم أجد لـــه ذكرا . والرجل متأخر عن ابـــن هذيل،فبينهما ما يقرب من ثلاثمائة سنـــة ، ونسخته مليئة بالاخطاء . فيحتمل أن يكون

هذا العنوان من وضعه ، أو من وضع غيره ممن اعتمد عليهم ابن جلون . والغريب أن لويس مرسييه، عندما يذكر كتب ابن هذيل، يعتبر الحلية كتابا مستقلا، فيفرد له رقما خاصا به، وللتحفة رقما خاصا (٤١) . وقد حقق محمد عبد الغني حسن مصوّرة مرسييه، وطبعها في كتاب بعنوان « حلية الفرسان وشعار الشجعان » . وانا لا أميل الى هذا العنوان لما ذكرت ، واقترح أن يكون عنوان الجزء الاول : « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس ، الجزء الاول ، في الجهاد والرباط وما يتعلق بهما » ، وان يكون عنوان الجزء الثاني : « تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس ، الجزء الثاني ، في الخيل والسلاح وما يتعلق بهما » ؛ وبذلك نكون قد وضعنا العنوان نفسه الذي ارتضاه المؤلف .

لمن رفع الكتاب :

رفع ابن هذيل الجزء الاول من كتابه الى « أمير المسلمين الغني بالله ابي عبد الله محمد » (٤٢) . وذكر والده ابا الحجاج يوسف ، وجده ابا الوليد اسماعيل بن نصر . وأفاض عليهم كثيرا من نعوت الفتح والجهاد والنسب الرفيع .

اما الجزء الثاني فقد رفعه الى « أمير المسلمين المستعين بالله أبي عبد الله محمد » (٤٣)، وذكر أربعة من آبائه الملوك ؛ فهو ابن أبي الحجاج يوسف، بن الغني بالله أبي عبد الله محمد، بن أبي الحجاج يوسف، بن ابي الوليد اسماعيل بن نصر . وأضاف عليهم — كما فعل في الجزء الاول — كثيرا من نعوت الفتح والجهاد والتدبّن والنسب ...

وقد ذكر قصيري في برنامجه لمكتبة الاسكوريال ان هدية « تحفة الانفس » وقعت سنة ٧٦٣ هـ (٤٤) . أي أنها رفعت للغني بالله عند ولايته للمرة الثانية ؛ فقد تولى الغني بالله الامر سنة ٧٥٥ هـ

حتى سنة ٧٦٠ هـ حين ثـار اخوه ابو الوليد اسماعيل الثاني وخلعـه . ولكنه اعـاد ملكه سنة ٧٦٣ هـ وبقي في الحكم حتـى سنة ٧٩٣ هـ (٤٥)، حيـن توفـي .

امـا الجزء الثاني فلا يُعرَف متى رفعه للمستعين باللـه ابي عبد الله محمد ؟ ولكننا نعـرف أن المستعين حكم من سنة ٧٩٧ هـ الى سنـة ٨١٠ هـ (٤٦) . وعلى ذلك يكون بين اهدائه الجـزء الاول،واهدائه الجزء الثاني، ما يقرب مـن خمس وثلاثين سنة على اقـلّ تقديـر .

ويذكـر صاحب « معجم المطبوعات العربيـة » ان المسيو لويس مرسييه ترجم كتاب حلية الفرسان ــ الجزء الثاني ــ الى الفرنساوية ... وقال في مقدمته : « ان هذا الكتاب الفـه ابن هذيل باشارة السلطـان محمد الخامس بن يوسف بن اسماعيل بن نصر ... الذي ملـك بيـن سنة ٧٥٠ هـ الى ٧٦٤ » (٤٧) . ونحن نتفق معـه في اسم السلطان ، ولكننا نختلف معـه في الفترة الزمنية التي ذكرهـا . فمحمد الخامس الغني بالله تولى الحكم سنة ٧٥٥ هـ وليس سنة ٧٥٠ هـ . كما أنـه لـم يحكم حتى سنة ٧٦٤ هـ حكمـا متتاليا . وانما فقد حكمه سنة ٧٦٠ هـ ، كما ذكرت . ولكنه اعـاده سنة ٧٦٣ هـ.وبقـي في الحكم حتى سنـة ٧٩٣ هـ . وقـد حاول محمد عبد الغني حسن الرد على ما جاء في معجـم المطبوعات،فأخطأ حين قـال معلقا على ذلك : « وهذا الكلام يحتاج الى التصحيح من جهتين : فـان السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل قد تولى سنـة ٧٥٥ هـ لا سنة ٧٥٠ هـ . وليس هذا السلطان هو الـذي عُمِل كتاب التحفة باشارته ، ولا أُهديَ من المؤلـف اليه ، فقد كـان متقدما على السلطان محمد بن يوسف بن محمد بن اسماعيل ، وبينهمـا

اثنتان وأربعون سنة ، ودليلنا على ذلك هو كلام ابن هذيل نفسه في مقدمة كتابه: فالسلطان الذي قُدِّم اليه كتاب التحفة، أو الحلية، هو الحادي عشر من ملوك الدولة النصرية ، على حين ان السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل، الذي يذكره صاحب معجم المطبوعات العربية ، هو الثامن في ملوك هذه الدولة » (٤٨) . وهكذا خطأ الرجل ما جاء في المعجم من جهتين ، ولكنه وقع في الخطأ من ثلاث جهات ؛ حين نفى أن يكون كتاب « التحفة » قد رفع الى الغني بالله، ورأى أنه رفع الى المستعين بالله، معتمدا في ذلك على ما ورد في مقدمة الجزء الثاني فقط، دون الاخذ بعين الاعتبار المدة الزمنية بين اهداء الجزأين ؛ فهو يتحدث عن الجزء الثاني كما لو كان يتحدث عن الجزء الاول . وهذا هو الخطأ الثاني . أما الخطأ الثالث فهو في ذكره ان السلطان الذي قُدِّم اليه الجزء الثاني هو الحادي عشر من سلاطين الدولة النصرية ؛ والصحيح انه السلطان الثاني عشر .

لِمَ أَلَّف ابن هذيل كتاب « تحفة الانفس » :

يقول ابن هذيل في مقدمة الجزء الاول : « فان أعظم الفوائد قدرا ، وأشرف المعاني ذكرا ، وأنجح المساعي أمرا ، أن يُرفع فَنّ من العلم نبيل الى مقام ملك جليل ، لا سيما اذا كان ذلك فيما يتعلق بصفة الملك الغالبة عليه ، ويختص بسجيته المنوطة به ، وقطره الراجع حكمه اليه ، فيتضاعف شرف الموضوع . وذلك هو الذي أوجب على العبد تأليف هذا الكتاب ... عندما لاذ به، وتمسك بفاضل مذهبه في الجهاد والرباط (٤٩) » ثم يقول : « فجاء بحمد الله في فنه مجموعا كافيا ، وفي معناه اسلوبا شافيا ، تذكرة لمن عني بالجهاد وتبصرة لارباب الطعان والجلاد ، وتنبيها للفارس وعونا للبطل

الممارس » (٥٠) . وهـذا الكلام موجود في مقدمة الجزاين مع اختلاف طفيف . وواضح ان المؤلف يعتبر مادة الكتاب من العلم النبيل، لانها تتعلق بصفة الملك الغالبة عليه، الا وهي الجهاد ؛ فكان تأليفه استجابة لدواعي الجهاد آنذاك ، كما كان استجابة لاحساس نفسي بما آلت اليه الحال ؛ فاتجه الى القرآن ينتقي منه ما يحقق هدفه النبيل ، والى سنّة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومغازيه يختار منها ما تطلبه الحال ، والى تاريخ العرب يستلهم منه ما يناسب المقام . ولا غرابة في ذلك فقد تعرّض المسلمون في الاندلس في تلك الفترة لشر مستطير ، حيث تكاتفت ايدي الكفر تريد قمعهم، او تغيير عقيدتهم التي كانوا بها، وبغيرها لن يكونوا . وقد تنبّه سلاطين الدولة النصرية لذلك ، فجعلوا الجهاد ديدنهم ، وعاشوا والسلاح في يدهم، والعدو يتربص بهم الدوائر في كل حين . وقد بلغت غرناطة أوج ازدهارها وقوتها زمن ابي الحجاج يوسف الاول، وابنه الغني بالله ؛ وتوفي المستعين محمد ابن يوسف بعد أن عاد من غزو ولاية جيان سنة ٨١٠ هـ (٥١) . وابن هذيل يدرك جيدا تعلق السلاطين النصريين بالجهاد، واعتباره واجبا دينيا خالصا لوجه الله تعالى ؛ ويبدو ذلك واضحا في مقدمة كل من الجزاين . ولو لم يصرح ابن هذيل بهدفه من التأليف لعرفنا ذلك بالتلميح ؛ فالمستعين ذو الدين المتين ، المجاهد الاقصى ، وهو ابن ابي الحجاج يوسف، المجاهد في سبيل الله، ابن الغني بالله، سيف الله المسلول في سبيل جهاده، والغني ابن السلطان المجاهد ، قامع الكفار، وفتّاح الاقطار، ابي الحجاج يوسف بن المجاهد في سبيل رب العالمين ، معز الاسلام وأهله، ابي الوليد اسماعيل بن نصر (٥٢) . والمؤلف يدرك تماما — حال الاندلس، فيحضّ على الجهاد ويرغّب فيه ، ويرضى حكم الله حيث القلة المسلمة والكثرة الكافرة . فبعد أن يسوق آيات وأحاديث في فضل الجهاد عامة، يعلق بقوله : « وان أكرم تربة رفع

الايمان بهـا علما ومنارا ، تربة لبست الجهـاد في سبيل الله شعارا ... جزيرة الاندلس ، أزكى تربـة ، راقت صفحة ومحيا ، وفازت بمدخور فضل الشهادة اعمار اهلهـا ... فخبرها طريف ... كأنها بين بحـر زخار ، وعدو جزار، ملازمين اهلها في الليل والنهـار . والروم بها أمـم كثيرة مختلفة لا يعلمهم الا اللـه تعالى . والحرب بينهم وبين المسلمين، على قلتهـم بالاضافة اليهم، لم تزل سجالا : تارة حال نصر واقتدار ، وتارة حال تمحيص واختبار . سبحان العزيز القهـار ، الذي كل شيء عنده بمقدار » (٥٢) . وهـذا النص بالغ الدلالة على حال المسلمين آنذاك . كما انـه بالغ الدلالة على المفهوم الاسلامي النقـي الخالص للجهـاد؛ فالحرب سجال ، والمسلمون تارة حال نصر واقتدار ، وتارة حال تمحيص واختبار . فهو يعتبر هزيمتهم تمحيصـا واختبارا من اللـه سبحانـه وتعالى . وهذا الكلام يذكرنا بقوله تعالى : « ان يمسسكم قرح فقـد مس القوم قرح مثله؛ وتلك الايـام نداولها بين الناس ؛ وليعلم الله الذين آمنـوا ويمحق الكافرين » . كما ينطوي النص على صرخة الـم دفين ، وعلى اعجاب مشوب بالاشفاق علـى المسلمين ، وعلى اعجاب يبلـغ حـد العشق للأندلس .

وفي نص آخـر يضع ابن هذيل يـده على مشكلة نفسية كانـت قائمة ، وعلى موطن من مواطن الضعف، وهـو الانهزام دون قتال ؛ ويقول بعد ما يورد آيـات كريمة واحاديث شريفة تحضّ على الثبات : « وأمـا ما يفعله اهـل الفشل والخَوَر والخذلان في هذا الزمن، من الانهزام عنـد رؤية العدو، قَـلَّ أو كَثُر، قبل التلبس بالقتال ، ومراجعـة الابطـال ؛ وتعريض الضعفاء لمـا قد جرت بـه العادة الرذلة من القتل والاسر ، فهذا ما لا يجوز لمسلم بوجـه ، وفيه معرة وسوء فطنة المآل؛ واللـه يعصم مما يصم » (٥٥) . والجزء الاول فيـه كثير من تعليقات ابن هذيل

على ما يسوق من آيات او احاديث او اخبـــار . ومن تعليقاته المختلفـــة نلمح غرضه واضحا وهدفه بيّنـــاً . أما الجزء الثاني فموضوعه في الخيل والسلاح، وفيه يُعلِّم ابـــن هذيل الناشئة ركوب الخيـــل واستعمـــال السلاح، ويسوق الدليل ليؤكـــد شرعية ما يذهب اليه. يقول مثـــلا :

« أُقْسَم اللـــه تعالى بالخيل في كتابه العظيم، لفضلها عنده ، فقـــال سبحانـــه : « والعاديات ضبحا ... » وفضلها رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم على الرجـــال في السهمان ، فجعل للفرس سهمين، وللرجل سهما واحدا . وجاءت في فضلها عنه، صلى الله عليه وسلم، احاديـــث كثيرة . عن عبد الله بن عمر أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قـــال : « الخيـــل معقود في نواصيها الخير الى يـــوم القيامة » (٥٦) . وواضح أن الرجل يحبب الى الناس اقتناء الخيـــل .

طريقة ابن هذيـــل واسلوبه في التأليـــف :

اعتمـــد ابن هذيل في كتابه على القرآن الكريم والاحاديث النبويـــة الشريفة ، كما اعتمـــد على كتب من سبقه في السِيَر واللغة والفقـــه ... وما كتب في الخيـــل ... والمؤلف يذكر بعضا من مصادره ومراجعـــه، فيقول : « وجمعتُ هذا الكتـــاب من جملة تواليف ، وانتقيته من غير مـــا تصنيف ، ككتاب ابـــن يونس في فقـــه الجهاد ، وكتاب يقظة الناعس لتدريب المجاهـــد الفارس ، وكتاب راحة القلوب والارواح في الخيـــل والسلاح ، وكتـــاب الدمياطي في الخيل ... الى غير ذلك من التواليف، التي لنزارة المنقول منها هنـــا لم تُكْتَب، ومن الاجزاء التي لصغر حجمهـــا لـــم تُنْسَـــب » (٥٧) .

ويقـــول في مقدمة كتابه « عين الادب والسياسة » : « والـــذي عليه في التأليف المـــدار ، هو حسن الانتقاء والاختيار ، مـــع الترتيـــب

والتبويب ، والتهذيب والتقريب . وفضيلة هـذا التأليف هي في جمـع مـا افترق مما تناسب واتسق ، واختيار عيون ، وترتيب فنـون ، مـن احاديث نبويـة ، ومكارم ادبية ، وحِكَم باهرة ، وابيـات نادرة ، وأمثال شاردة ، وأخبار واردة ... » (٥٨) .

فالقولان متفقان الى حد مـا ، ويكمل احدهما الآخر : فالاول يدلّنـا على مراجعه، وعلى أنـه لم يثبتها كلها ، والثاني يبيِّن لنـا طريقـة اختياره من هذه المراجع، وكيف انـه يجمع ما افترق، وهو يعتبر ذلـك فضيلة هذا النوع من التأليـف .

وقـد حاول محقق الجزء الثاني أن يردّ مـواد هذا الجزء الـى اصولها . ويبدو لـي أن اعتماد المؤلف كان كبيرا على كتابَي « الخيل » لابـي عبيدة ، وفضل الخيل « للدمياطي ». ومن ينظر الى موضوعات هذه الكتب يجد بعض التشابه . ومن ذلك أن ابـا عبيدة يجعل الباب الاول من كتابه في : « صيانة العرب للخيل وايثارهم لهـا وأشعارهم في ذلك » ، أمـا ابن هذيل فيجعل الباب الثالث من الجزء الثاني « في حفظ الخيـل وصونها، وما قيـل في الوصية بها » . ويتحدث أبو عبيدة عن « عيوب الخيـل خلقـة وحادثة » ، أما ابـن هذيل فيجعل البـاب الثامـن « في عيوب الخيـل خلقه وعادة » . ويتحدث أبـو عبيدة عن « أسماء الطير في الفَرَس » ويفرد ابن هذيل الباب الرابـع ليتحدث عما تسميه العرب مـن أعضاء الفَرَس ، وما في ذلك مـن اسماء الطير . ولا يعني ذلـك الاتفاق الحرفي بين الكتابين ؛ فمن أسماء الطير يذكـر أبـو عبيدة ستة عشر اسما، بينما يذكر ابن هذيل سبعة عشر اسمـا ؛ وفي كتاب ابن هذيـل ثلاثة أسماء زيادة على ما في كتاب ابـي عبيدة هي : النعامة والفرخ والحـداة . وفي كتاب ابي عبيدة اسمان زيادة همـا

« السحاة والخفاش » . وهكذا تبدو المقارنة ممكنة بين الكتابين ؛ وقد حاول محقق الجزء الثاني ذلك في هوامش الكتاب .

أما عن الجزء الاول فيبدو لي ان اعتماد المؤلف كان كبيرا على كتاب « الاحكام السلطانية »للماوردي ، وخاصة على البابين : الرابع والخامس منه . وفصول هذين البابين تتدخل في اكثر ابواب الجزء الاول . ولما كان هذا الجزء غير محقق، فقد رايت ان اضرب امثلة تثبت تأثر ابن هذيل بكتاب الماوردي، واكتفيت بايراد ثلاثة امثلة من كل منهما :

يقول الماوردي في حديثه عن « ما يجب على الامير في السير بجيشه ؟ » ... « الرفق بهم في السير الذي يقدر عليه أضعفهم، وتحفظ به قوة اقواهم ، ولا يجدّ السير فيهلك ويستفرغ جلد القوى ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى، وشر السير الحقحقة » (٥٩) .

ويقول ابن هذيل في الباب السادس فيما يجب على الامير ان يفعله في السفر : « يجب على الامير ان يُسَيِّر جيشه وجمعه بسير أضعفهم ؛ ففي ذلك الرفق الذي يبلغ به الضعيف ، ويتوفر عليه جُلُد القوى . وفي خلاف ذلك استهلاك الضعيف ، واستفراغ جُلُد القوى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الدين متين فأوغلوا فيه برفق، فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى، وشرّ السير الحقحقة » (٦٠) .

ويقول الماروردي في الباب نفسه : « والثاني أن يتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها، وظهورهم التي يتمطونها ؛ فلا يدخل في خيل الجهاد ضخما كبيرا ، ولا ضرعا صغيرا ، ولا حطما كسيرا ، ولا اعجف زارحا هزيلا ؛ لانها لا تقي، وربما كان ضعفها وهنا . ويتفقد ظهور الامتطاء والركوب ، فيُخرِج منها ما لا يقدر على السير، ويمنع من حمل زيادة على طاقاتها » (٦١) .

وقال ابن هذيل في الباب نفسه : « وعليه أن يتفقد خيلهم التي يجاهدون عليها ، وظهورهم التي يمتطونها وتحمل اثقالهم وأمتاعهم ؛ فيخرج من خيل جهادهم القحم الكبير، والحطم الكسير، والضرع الصغير، والاعجف الهزيل ؛ فانها لا تغني، وربما كان الضعيف من ذلك وهنا في العسكر ؛ ويرد من لا يقدر على السير ، ويمنع أن يحمل على الظهر ما لا يطيقه » (٦٢) .

ويتحدث الماوردي عن المشركين في الحرب فيقول : « والمشركون في دار الحرب صنفان : صنف منهم بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا منها وتابوا عليها ؛ فأمير الجيش مُخَيَّر في قتالهم بين امرين، يُفعل منهما ما علم انه الاصلح للمسلمين، وانكأ للمشركين من بياتهم ليلا ونهارا بالقتال والتحريف ، وأن ينذرهم بالحرب ويصافهم بالقتال ؛ والصنف الثاني لم تبلغهم دعوة الاسلام ، وقل ان يكونوا اليوم لما قد أظهر الله من دعوة رسوله ، الا أن يكون قوم من وراء من يقابلنا من الترك والروم في مبادىء المشرق واقاصي المغرب لا نعرفهم، فيحرم علينا الاقدام على قتالهم غرة وبياتا بالقتل والتحريف ، وأن نبداهم بالقتل قبل اظهار دعوة الاسلام لهم واعلامهم من معجزات النبوة، واظهار الحجة بما يقودهم الى الاجابة ، فان أقاموا على الكفر بعد ظهورها لهم، حاربهم، وصاروا فيه كمن بلغتهم الدعوة ؛ قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن »؛ يعني: أدعُ الى دين ربك بالحكمة ؛ وفيها تأويلان : أحدهما بالنبوّة ، والثاني بالقرآن . وفي الموعظة الحسنة تأويلان : أحدهما القرآن في لين من القول، والثاني ما فيه من الامر والنهي » (٦٣) .

ويقول ابن هذيل في الباب الحادي عشر « فيما يجوز فعله في الغزو وما لا يجوز فعله فيه » : « فاذا وصل عسكر المسلمين الى

بـــلاد العدو فالمشركون صنفان : صنف بلغته الدعوة بالاسلام فامتنعوا وقاتلوا، فيجوز قتالهم غرة وبياتا وعلى كل حـــال ؛ وصنف لم تبلغهـــم الدعوة، وقَلَّ ما يوجدون اليـــوم، الا أن يكونوا وراء من يقاتلنا في اقاصي بـــلاد الروم وما يبعدون عن المسلمين ؛ فهؤلاء لا يقاتَلون حتى يدعـــوا الى الاسلام وتقـــام الحجة عليهم . قال الله العظيم « ادع الى سبيـــل ربـــك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي احسن » فقيل في الحكمة إنهـــا أمور النبوّة، والقـــاء المعجزات، واظهار الحجة ؛ وقيل هي القرآن . وقيـــل في الموعظة الحسنة قولان : احدهما بالقرآن في لين من القول ، والثاني ما فيـــه من الامر والنهي » (٦٤) .

ولا يـــلام الرجل على ذلك ؛ وكيف يلام وهو قـــد صرح بأنه جمع كتابه من جملـــة تواليف ، وهو يذكر بعضا من هذه التواليف كما مـــر . وبذلك يحقق النزاهة والموضوعية في كتابـــه . كما أن هذه الطريقة في التأليف كانت متبعة عند القدمـــاء وأحيانا يتبعها المحدثون . ومن يقـــرأ الكتب التي تحدثت عن الخليل، مثلا، يجـــد أن أساليب اكثرها تكاد تتفق في الخبر الواحد ، أو في التعريف اللغوي . فكثيرا ما نجـــد الحكاية عند أبي عبيدة في كتاب « الخيل »، ثـــم نجدها نفسها في أنساب الخيل ، لابن الكلبي ، ثـــم نجدها في « نهاية الارب » للنويري، ثم عند ابن هذيل . وابن هذيل لم يرد من تأليف هـــذا الكتاب اظهار براعته، أو عرض عضلاتـــه الفكرية ، بـــل كان هدفه — كما صرح — أن يكون كتابه « تذكرة لمـــن عني بالجهاد » . ولـــذا فهو ينتقي من التراث ما يحقق هدفـــه ويدعـــم رأيـــه .

وعمليـــة الاختيار هذه ليست سهلة ؛ وقد وفـــق ابن هذيل في اختيار مـــادة كتابه وترتيبها على أبواب الكتاب . والحق أن الرجـــل لـــم يكن يكتفي بمجرد الاختيار والتنسيق، وانمـــا كانت تتدخل شخصيته

بوضوح . وهذا يبدو في تعليقاته المختلفة على ما ينتقي من مادة . يقول بعد أن يورد وصية الخنساء لأولادها ، وكيفية استشهادهم ، معلقا على ذلك : « فبهذه الاخلاق يوصف الرجال ، ولمثل قصدهم تخلص الاعمال ، وبكريم صفاتهم يستحق اسم الرجولية وتحمد الذكورية ؛ فطوبى لمن بذل في سبيل الله قراضه وبخره،واحتسب عند الله من لا يضيع عنده مثقال حبة من خردل أجرة ، ووجه الى مرضاة الله مقاصده واغراضه ، وجعل الجهاد في سبيله قبلته ، واشترى الكثير بالقليل » (٦٥) .

وبالرغم من أن المؤلف انتقى كتابه من جملة تواليف،الا أن كتابه في جملته يختلف عن كل منها منفردا . وعلى سبيل المثال،فان كتاب الخيل،لابي عبيدة،يهتم بالشعر أكثر من اهتمامه بالآيات القرآنية او الاحاديث النبوية ؛ بل انه قليلا ما يورد منها في كتابه ؛ بينما نجد العكس عند ابن هذيل،فهو يبدأ أكثر أبواب كتابه بآية قرآنية ، فان لم يجد فبحديث نبوي ، فان لم يجد فبقول صحابي أو تابعي ... وقليلا ما يند عن ذلك لا سيما في الجزء الاول من الكتاب . كما أن الشعر الذي يورده في ثنايا الكتاب قليل بالنظر الى ما جاء في كتاب الخيل . وابن هذيل لا يذكر شيئا في الجزء الاول الا يحاول أن يبين حكمه في القرآن والا ففي السنة ؛ وكذلك الامر بغير قليل من مادة الجزء الثاني . ولا عجب في ذلك،فغرض ابن هذيل من تأليفه يختلف عن غرض أبي عبيدة .

وكتاب أبي عبيدة في الخيل وحدها ، وكتاب « انساب الخيل »، لابن الكلبي،في انساب الخيل العربية وحدها ؛ بينما يتحدث ابن هذيل في الجزء الثاني من كتابه عن الخيل،وعدّة الحرب المعروفة آنذاك، كالسيف ، والرمح ، والترس ... نعم ان ابن هذيل وقف طويلا عند

الخيل، واستقصى كل ما يتعلق بهـا ، وما ذلك ـ في رأيي ـ الا لكثرة ما ورد في هـذا الباب من اقوال ، ولمـا للخيل من اهمية في الحـرب آنذاك ؛ وأكثر ادوات الحـرب الاخرى يستطيع أن يستعملها الفارس، وفرق بين استعمال الفارس واستعمال الراجل لهـا . وتمشيا مـع هدفه من التاليف، نجـد ان ابن هذيل لا يكتفي بذكر ادوات القتال واستقصاء صفاتها ، بل انـه يعمد الى شرح طريقة الاستعمال ، وهـذه ميـزة من ميزات الكتاب . ومن هـذه الادوات ما ليس عربيا، كالقوس الافرنجية . ولم يصف كتـاب من الكتب التي رجعت اليهـا هذه القوس كما فعل ابـن هذيـل .

والمؤلـف يخضع مـادة كتابه لتقسيم عقلي منطقي دقيق ، وعنوان الباب يحمل دلالـة واضحة على مادته . ومـواد الكتاب لا تختلـط، فالباب لا يعتدي على باب آخـر، كما ان الخبر الواحد لا يُكَرَّر مرتيـن . وهو قليلا ما يشير الى خبر مَـرَّ ذكره، ولكنه في هذه الحالة يستنبط منـه جديدا . وكل بـاب من ابواب الكتاب يؤدي الى الباب الـذي يليـه، ويلتحم معه بلحمة المنهـج والهدف ؛ فالباب الاول : في فضل الجهاد وما اعـد اللـه للمجاهد والشهيد في سبيلـه ؛ والباب الثاني : في الرباط وفضله، وما خُصَّت بـه من ذلك جزيرة الاندلس ؛ والباب الثالث : فـي فرض الجهاد ؛ والرابع : فيمـا يفعله الغازي عند خروجه الى الجهاد ...

والمؤلـف في مادة الباب الواحد يبطىء في تنقله ؛ فهـو لا يترك نقطة الا بعد أن يشبعها بحثـا واستقصاء، بحيث يشعر القارىء أن لا زيادة لمستزيد ؛ ففي الكتاب تجـد القرآن الى جانب الحديث، الى جانب اللغـة، الى جانب الحدث ... وهو ينتقي من ذلك ما هو بالـغ الدلالة على الجزئية بعينها، ثـم ينتقل الى اخرى . ولـذا كان كتابه اشبـه بموسوعة في امور الجهاد، وما يتعلق بـه من فقه ولغة وحديث ... وقد لاحظت ان المؤلـف لا يورد اشعارا كثيرة في ثنايـا الجزء الاول مـن

كتابه ، ويستثنى من ذلك الباب الثامن عشر، فقد غلبت عليه مادة الشعر . ولا عجب في ذلك ، فالباب المذكور « في الفروسية والتجند » ، وكأن ابن هذيل ادرك ارتباط الشعر بالفروسية ، فكم اختلطت قعقعة السيوف بأهازيج الفرسان في الفتوحات الاسلامية ، وكم انطقت الفتوحات الفرسان شعرا وان لم يكونوا شعراء ! وهكذا انتقى ابن هذيل أبياتا شعرية للمشهورين من الفرسان، كعمرو بن معد يكرب ، والسموأل ، وأبي فراس الحمداني .

وثمة ملاحظة اخرى، وهي أن الرجل ينتقي من الحروب ما كان النصر فيها للمسلمين ، ونادرا ما شذ عن ذلك ، مع أنه كان يعرف هزائم المسلمين الكثيرة في الاندلس، فهو ابن القرن الثامن الهجري . وكأن الرجل ادرك الاثر النفسي الذي يولد في النفوس نتيجة ذكر الهزائم ، فأعرض عنها، وذكر انتصارات المسلمين وبطولاتهم، وكأنها درس يربّي الناس على الشجاعة والاقدام ، ويجعلهم اكثر تمسكا بعقيدتهم وحضارتها، حيث كانت مهددة بخطر الابادة .

أما عن أسلوب ابن هذيل فيصعب اصدار حكم نهائي عليه ، لانني لم استطع الاطلاع الا على قليل من كتبه ؛ ومادة هذه الكتب مختارة من كثير من الكتب . ولكنني سأعتمد على مقدمات الكتب التي اعتمدتها ، وعلى تعليقات المؤلف في ثنايا هذه الكتب ، لاصدار راي أعتقد انه صواب . أما المقدمات فيبدو فيها الجمع والتقسيم والازدواج والترادف، يقول المؤلف مثلا : « كتب الله النصر المؤيد ، والثناء المخلد ، والعز المؤبد ، للمقام الكريم السني ، الجليل الطاهر العلي ؛ مقام مولانا ومنجانا ، وعصمة ديننا ودنيانا، ظهير الدين ، وعماد المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، الشهير المناقب ، العلي المراتب » (٦٦) . والمقدمة من الامثال الجيدة على أسلوب الكتابة الاسلامية الرسمية

آنذاك ، فهي تبدأ بالبسملة ، فالصلاة والسلام على سيدنا محمد ، فالحمدلة . وعندما يريد بيان غرضه يقول : « اما بعد » . اما تعليقاته فتشبه في اسلوبها اسلوب المقدمة الى حد ما . يقول بعد أن يورد اشعارا في الفروسية : « واشعار الكماة من الرجال لا تحصى في هذا المعنى لكثرتها ، ولا تخفى على احد لشهرتها،لكن في ذكرها ما يبعث على الاقدام ، وتحمل على ورود مناهل الحمام ... فالاقدام ليس يدني من الوفاة ، ولا الاحجام يزيد في الحياة . والطعن في ثغر النحور اكرم منه في الاعجاز والظهور، والهالك المصدور خير من الناجي الفرور » (٦٧) . اما بقية مواد الكتاب فهي تمثل طريقته في التأليف اكثر ما تمثل اسلوبه الفني . ومهما يكن، يبدو لي أن الرجل تمثّل اسلوب عصره ولم يخرج عنه .

ثقافة ابن هذيل :

يبدو لي أن ابن هذيل كان واسع الاطلاع ، متمثلا ما انتهى اليه عصره من ثقافة ، واعيًا بضروب كثيرة من المعارف . وقد ظهرت آثار ثقافته واضحة في تأليفه .

فرغ ابن هذيل من كتابه « عين الادب والسياسة » سنة ٨٠١ هـ. وموضوع الكتاب يدور حول الاخلاق والحكمة والسياسة . ويذكر ابن هذيل في كتابه المذكور أسماء ثلاثة من كتبه الاخرى، حين يأخذ منها بعضا من مادة الكتاب . وبذا تكون موضوعات هذه الكتب تمت بصلة ما الى موضوع « كتاب عين الادب »، كما أن في عناوين هذه الكتب دلالة على ذلك، فهي « تذكرة من اتقى » و « كمال البغية والنيل » و « مقالات الادباء ومحاضرات النجباء » . والاغلب أن « عين الادب والسياسة » كان آخر ما الف ابن هذيل من كتب ؛ وهو قد الف الجزء الاول من التحفة سنة ٧٦٣ هـ،فيكون بين الكتابين ما يقرب من أربعين

سنة قضاها ابـــن هذيل في التاليف . ويحتمل ان يكون قـــد توّج تآليفه بـــ « عين الادب والسياسة » . ولا يعقل ان يتصدى رجـــل للحديث عن مـــادة كمادة هذا الكتاب ـــ وهي الاخلاق والسياسة والادب والحكمة ـــ دون ان يكون ملمّـــا بالقرآن وعلومه المختلفة ، وبالسنّة واحكامهـــا ، وبعلم التاريخ والسير ، وبخلاصة تجارب بعض الامـــم السابقة ... وهذا ما يفصح عنـــه كتابه « التحفة » .

كـــان الرجل وثيق الصلة بالقرآن ، متنعما بفيئه ، واعيا باحكامه ، متصلا بتفسيره ؛ فهـــو يقتبس منه ويفسر بعض مـــا يقتبس . اما مـــا يتركه دون تفسير فتفسره المناسبة . وقـــد لاحظت ان اقتباسه من القرآن في الجزء الاول اكثر منـــه في الجزء الثاني . والسبب هـــو ان الجزء الاول في الجهاد بينمـــا الثاني في الخيل والسلاح .

وهـــو في تفسيره يهتم بالمعنى اللغوي للكلمة،كقوله : « والجهـــاد في اللغة مأخوذ من الجهـــد ؛ ومن ذلك قولهم بلـــغ جهده ومجهوده ؛ وجهده الامـــر اذا استنفد سعته وطاقته.قال اللـــه العظيم : « وجاهدوا في اللـــه حق جهاده »،أي دافعوا عن دينـــه،وقاتلوا في سبيله بغايـــة القدرة ومنتهى القـــوة » (٦٨) . واحيانا ينقل المؤلف عدة آراء في تفسير جزئية،ويميل الى راي منهـــا،مثبتا صحة هذا الراي بآيـــة قرآنيـــة او حديث نبوي . يقول في تفسير أولـــي الامر في قوله تعالى : « واطيعـــوا اللـــه واطيعوا الرسول واولي الامر منكـــم » : « فقيل في أولي الامـــر انهـــم الولاة الامور؛قالـــه ابو هريرة وابن عباس وغيرهما ؛ وقيل اصحاب السرايا ؛ وقال زيـــد بن اسلم : هـــم السلاطين،والاكثر على انهـــم الامراء والسلاطين،لقول رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : « سيليكم بعدي ولاة:البر ببره،والفاجر بفجوره ، فاسمعوا واطيعوا في كل ما وافـــق الحق ، وصلوا وراءهم،فـــان احسنوا فلكم ولهـــم،وان اساءوا فلكـــم

وعليهم » (٦٩) ... وهكذا فهو يفسر القرآن بالحديث أحيانا، وهو ينقل آراء مختلفة، ومثل هذه الاقوال كثير في كتابه ، ولا يستطيع ذلك الا رجل مطلع على القرآن والسنة واللغة ...

وابن هذيل كان على معرفة بالمذاهب الفقهية ، او انه قرأها على اقل تقدير ؛ فكثيرا ما يورد حكما فقهيا لاحد المذاهب في مسألة ما ، ثم يردفه برأي فقهي لمذهب آخر . ومن ذلك قوله في باب المبارزة : « ومنع أبو حنيفة أن يدعو المسلم الى البراز مبتديا ورأى وراء ذلك بغيا ... وجوّزه الشافعي، ورآه اظهار قوة في الدين ونصرة له » (٧٠) . وكقوله في مكان آخر : « ولم ير مالك، رحمه الله، جواز الانهزام من المثلين فما دون ، واعتبره الشافعي من الكبائر ، وقال أبو حنيفة : « عليه أن يقاتل ما أمكنه، وينهزم اذا عجز عن المصابرة وخاف القتل » (٧١) . وقد لاحظت أن الرجل لا يذكر رأيا لابن حنبل . ومعروف أن مذهب ابن حنبل لم يكن شائعا في الاندلس »، كما أن الشافعيين كانوا يعتبرونه شافعيا . والطبري لم يعد مذهبه في الخلاف، واعتبره رجل حديث لا رجل فقه » (٧٢) . ومن تضمينات ابن هذيل الفقهية اعتقد أن الرجل كان مالكي المذهب؛ وسبب ذلك انه يروي رأي مالك أكثر من غيره ؛ كما انه كثيرا ما يعتمد رأي سحنون . ومعروف أن سحنون « هو الذي أخذ مدونة مالك عن أسد بن الفرات، فرتبها وبوّبها، واحتج لبعض مسائلها بالاثار، وعاد بها الى القيروان، وانتشرت منها الى الاندلس ، وكان لها الفضل في نشر مذهب مالك في المغرب والاندلس (٧٣) .

أما عن الحديث النبوي ، فالرجل مطلع عليه ، واع بمناسباته وتفسيره . وهو يفسر القرآن أحيانا بالحديث، وهو لا ينتقي من الحديث الا ما هو مناسب تماما في الدلالة على ما يريد اثباته ؛ فالاحاديث التي تذكر الشهيد وفضله كثيرة ، ولكن ابن هذيل يميز بينها لانه

يفهمها جيـــداً فينتقي منها في حديثه عما اعـــد الله للشهيد ما يخدم هدفه العام من الكتاب، وما يوضح رايـــه الخاص في الباب المذكور، يقول مثلا : « وقال صلى الله عليه وسلم : ما احـــد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيـــا الا الشهيد يتمنى، أن يرجع فيُقتل عشر مرات، لما رأى مـــن الكرامة (٧٤) » . وكقوله ايضا : « وقـــال صلى الله عليه وسلم : الشهيد لا يحب الـــم الموت، الا كما يحب أحدكم الـــم فرحـــه » (٧٥) .

وتبـــدو ثقافة ابن هذيل اللغوية واضحة ؛ فكثيرا ما يعمد الـــى التفسير اللغوي لكلمات قرآنيـــة أو لكلمات في احاديث نبوية شريفـــة . والحقيقة ان الجزء الثاني يكـــاد يكون معجما لغويـــا للخيل، وما يتعلق بهـــا، وللسيف وللرمح والدرع ... فهـــو يستقصي ما يتعلق بهذه مـــن أسماء وصفات ، ويفسر ذلك تفسيرا دقيقـــا، معتمدا على ثقافته اللغوية، وعلى ما جمعـــه من الكتب . ويحشد المؤلـــف لاعضاء الفرس ما يقرب من مئتين وعشرين اسمـــا ، ويفسر كل اسم منها تفسيرا دقيقا ؛ كمـــا تجـــد لاسماء خيل العرب المشهورة ما يقرب من مئـــة وثمانين اسمـــا، اذا أضفنا لهـــا أسماء العتاق . وقد أضاف ابن هذيل الى قاموس اللغة عددا من الكلمات التي كـــان يستعملها أهل الاندلس، يقول مثلا : « والقسي تنتخب من عشر عيدان : خمسة بريـــة ، وخمسة بستانية ؛ فالبريـــة : الطخش ، وهو النبع بلغـــة العرب ، والزنبوج ، والدردال ، والكتك ، والشبر (٧٦) . ولم أجـــد لهذه الكلمات بمعناها المذكور ذكـــرا فيمـــا رجعت اليه من المعاجـــم اللغوية ؛ فكلمة الطخش، في اللسان، بمعنـــى « اظلام البصر »، واما الدردال فلم أجدها، ولكني وجدت كلمـــة « الدردار » بمعنى شجر ؛ امـــا الزنبوج فلا وجود لهـــا في معاجمنا ، ويقول دوزي « إنهـــا شجرة زيتون برية ، ونوع من السهام » . امـــا الشبر فقد ذكر دوزي انهـــا شجرة السنديان أو ضرب منه ، ويذكـــر ان اصلهـــا

اللاتيني (Suber) . امـا الكتم فيذكر دوزي انـه نوع من الشجر ، ويقول انهـا تكتب خطأ « القتـم » في العربية المصرية (٧٧) .

وابـن هذيل عارف بالتاريخ والسير ؛ يـدل على ذلك كثـرة الاحداث واخبار المعارك والحروب التي ضمنهـا كتابه . وهو يهتـم بمعارك المسلمين اكثر من اهتمامه بأيـام العرب ، كما انـه يركز على المعارك التي انتصر فيهـا المسلمون . وقد سبق أن بينت سبب ذلـك .

والاغلـب عندي ان الرجل كان مثقفا ثقافة فلسفية ؛ فهو قـد تصدى للكتابة في الاخـلاق والحكمة،كما مـر بنا في كتابه « عين الادب والسياسة » . وفي ثنايـا كتابه « التحفة » وجدت لـه اقوالا لا يُرُدّها الى اصحابها .... بـل يكتفي بنسبتها الى بعضهم . كقولـه : « قـال بعضهم : الشجاعة هي فضيلة قـوة الغضب ؛ ويعني بالفضيلة الاعتدال ، وهو استعمال تلـك الصورة حيث ينبغي استعمالها » (٧٨).ومعروف ان اصل هـذا الراي عند افلاطون في حديثه عن النفس وقواها وفضيلة كل قـوة . واحيانا يصرح ابن هذيل بصاحب الراي كقولـه : « قـال أرسطوطاليس للاسكندر:اعلـم ان الحرب جسد وروح ، تقوم مـن ضدين يتغالبان بروحهما اعتقاد الغلبـة والظفر من كل واحد مـن الفريقين ، وجسمهما تلاقـي الفئتين ... » (٧٩) . واحيانا ينسب رأيـا لاثاس كان لهـم اتصال وثيق بالفلسفة،كقدامة بن جعفر،وابـي بكـر الطرطوشي،وغيرهما ... وابن هذيل يخضع كل هـذه الحكم والاقوال الفلسفية للمفهـوم الاسلامي اخضاعا كامـلا .

وفـوق ذلك كله فالرجل كان مطلعا على اشعار العرب ، متذوقـا لهـا ، عارفا بمناصيها،وقد اختار منها مـا يناسب هدفه . والشعـر يكثر في الـجزء الثاني ولكنه يقـل في الجزء الاول . واحيانا ينسب ابـن

هذيـــل الشعر المجهول الى قائله ؛ يقـــول : وقال محمد بن مسلم يمدح رجـــــلا :

يلقـــى السيوف بوجهه وبنحـــره ويقيـــم هامته مقـــام المغفـــــر

ويقول للطرف اصطبر لشبا القنـــا فعقرت ركن المجد ان لم يعقر (٨٠)

فهذان البيتيان وردا في ديوان المعانـــي لابي هلال العسكري وقد نسبهما الى بعض الاسلاميين ، كما وردا في الامالي (٨١) « لابـــي علي القالي » في قطعة مكونـــة من اربعة ابيات،وذكر القالي انهـــا مما اختاره ودفعه الى ابي بكر فقراه عليـــه . وابن هذيل لا يشرح الشعر شرحا لغويـــا ولكنه يسوقه ليؤكد بـــه معنى ما،فياتي الشعر في محله واضحـــا بيّنـــًا وكأنـــه مفسر .

واخيرا يبدو لـــي ان ابن هذيل كان فارسا اتقن النظر في علـــم الفروسية ؛ فالباب العاشر مـــن الجزء الثاني « في تعليم ركوب الخيـــل على اختلاف حالاتهـــا » . وهو يتحدث في هذا الباب حديث خبير مجرب . وقـــد لاحظت أن الرجل لا يذكر في هذا الباب مصدرا لمادتـــه،ولا يستشهد بقول احـــد كما في معظم ابواب الكتاب الاخرى ، وانما تبدو فيه ثقافتـــه المكونة من التجربة العملية . وقـــد حاولت البحث عن مـــادة هذا الباب في بعض الكتـــب التي تحدثت عن الخيل،ولكنني لم اجـــد مجالا للموازنة . ومن نصائحه للناس قولـــه : « واعلم ـــ ارشدك اللـــه ـــ ان اصل الفروسية الثبات ، وان مبداها انمـــا هو الركوب على العرى من الخيل ؛ ومن لـــم يتدرب اولا على عرى لـــم يستحكم ثبوته في الغالب ، بل يكـــون ابـــدا قلقا في سرجه ، لا سيماعند خببه وركضه،فـــلا يؤمن سقوطه ان اضطرب فرسه او اصابته هنـــة » (٨٢) . وفي الباب الاخير من الجـــزء الاول يقدم ابن هذيـــل نصائح للقادة،وهي في مجملها اشبـــه بطائفـــة من الحكم . فهـــي في جمل موجزة ، ذات دلالات بعيدة . ويبدو لي انهـــا

خلاصة تجاربه وتجارب الآخرين . وهـو لا يردنا في هذا الباب الـى مصدر، وان كنا نعرف اصـل بعض جمله كقوله : « فاول هذه الصفـات السياسية ليـن في غير ضعف، وشدة في غـير عنف » «٨٣» . ومعروف ان هذا القول ورد في خطبـة زياد بن ابيه المعروفة بالبتراء . ومـن نصائح ابن هذيل للقائـد: « خالف الاعجاب تجـد الصواب ... لا تنسَ وضع الكمين عنـد اللقـاء ... ان بخلتَ بالمـال على اخوانك جُدتَ بـه على اعدائك ... ربّ كلمة هزمت عسكرا ... التفكـر في العاقبة عنـد التلبس بالحرب امارة الجزع ... » «٨٤» .